مقدمة

إن الواقع النسائى ليشهد اليوم نهضة لم يألفها من قبل ، وهذا الواقع يمثل الآن إحدى دعامتين تقوم عليها حياة المجتمع المصرى الحديث . ذلك أن المرأة قد طرقت كل مجال وزاولت تقريبا كل نشاط وأصبحت تقف على قدم المساواة مع الرجل .

وقصة نضال المرأة المصرية العربية المسلمة هى قصة كثيرة الحلقات متعددة الفصول ، فهى لم تصل إلى ما وصلت إليه الآن إلا بعد نضال طويل وصراع شاق مع أحداث التاريخ وصراعات الحياة .

وإذا نحن حاولنا الوقوف على أسرار هذا التطور فى تاريخ المرأة الحديثة ، وإذا ما أردنا الإلمام بمصادر هذا التطور فإننا نجد أنفسنا إزاء عوامل عديدة ، غير أننا لو أغفلنا النظرة الجزئية ونظرنا نظرة كلية عامة فإننا لا نجد غير عامل أساسى واحد هو عامل الفكر الإسلامى الذى يهيمن على كل مناشط الحياة ويوجه كل أساليب الممارسة فى ظل الأسس العامة الراسخة التى وضعها الإسلام .

وهذه الدراسة تمثل محاولة للوقوف على أثر الفكر الإسلامى فى تربية المرأة المصرية وتعليمها فى القرن التاسع عشر .

وتتكون الدراسة من أربعة أبواب تضم تسعة فصول ويتناول الباب الأول الفكر الإسلامى وتربية المرأة قبل التجديد ، ويتضمن هذا الباب فصلين أولهما خاص بالمرأة فى الإسلام ، وثانيهما خاص بعهد التخلف الذى تدهور فيه وضع المرأة وتخلف فيه الفكر الإسلامى بحيث إرتبط وضع المرأة بتخلف هذا الفكر ، وفى هذا الفصل عنينا بالأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التى كونت الإطار الثقافى لتربية المرأة وللفكر الإسلامى .

أما الباب الثانى « جذور النهضة الحديثة » ، فيضم ثلاثة فصول ، الفصل الثالث وهو خاص بالحملة الفرنسية ، وما كان لهذه الحملة من أثر فى حياة المجتمع المصرى فى كل مجالاته سياسيا واقتصاديا وفكريا ، وخصوصا فى حياة المرأة المصرية ، لقد كانت هذه الحملة هى الحملة هى الخطوة الأولى فى سبيل إتصال الشرق الإسلامى بالغرب ، كما كانت بداية التحول ليقظة مصر الحديثة .

أما الفصل الرابع فهو خاص بمحاولات محمد على الإصلاحية وجهوده فى البناء والرقى وفيه عرضنا لدور محمد على فى تحقيق إتصال الشرق الإسلامي بالغرب بأكثر من وسيلة كما نوهنا بجهوده فى مجال التعليم وخاصة تعليم المرأة ، كما أبرزنا أيضا فى هذا الفصل أثر هذه الجهود فى إحداث اليقظة الفكرية التى شكلت بعدا مهما من أبعاد التجديد فى الفكر الإسلامى .

وفى الفصل الخامس تحدثنا عن دور الطهطاوى فى تأصيل الفكر العربى الحديث وتناولنا مصادره الثقافية التى إستلهمها فى إتجاهاته السياسية والاقتصادية والاجتماعية والتربوية ، وربطنا بين كل أولئك وبين تربية المرأة المصرية كما أبرز معالمها فى كتابه « المرشد الأمين » .

أما الباب الثالث فقد خصصناه للتجديد فى الفكر الإسلامى وإتجاهاته ويضم هذا الباب فصلين هما الفصل السادس والفصل السابع ، أما الفصل السادس فقد عالجنا فيه حركة التجديد من حيث عواملها وخطواتها وفى الفصل السابع تحدثنا عن إتجاهات التجديد فى الفكر الإسلامى وحددناها بثلاثة إتجاهات : إتجاه الأفغانى الثورى السياسى وإتجاه محمد عبده الاجتماعى الدينى ثم إتجاه قاسم أمين الذى اختص به قضية المرأة وتربيتها فى ضوء الإسلام والفكر الحديث .

ويضم الباب الرابع فصلين هما الفصل الثامن والفصل التاسع ، أما الفصل الثامن فهو عرض عام لتطور الفكر الإسلامى وما اعتراه من ضعف ثم ما حدث به من تجديد وأثر ذلك فى تربية المرأة والفصل التاسع والأخير هو عرض تاريخى لتعليم المرأة خلال القرن التاسع عشر منذ بدايته وحتى نهايته .

والله من وراء القصد ...

بسم الله الرحمن الرحيم

توطئة

الفكر الإسلامى والظرفية التاريخية :

يحسن بنا قبل البدء فى فعاليات الدراسة وتناولها فى جوانبها المختلفة وأهدافها الغائية أن نلم أولاً – وعلى سبيل الوجازة – بقضيتين جوهريتين يمثلان الإطار المرجعى الأساسى للدراسة ، أولاهما قضية الفكر الإسلامى ، وثانيتهما قضية الظرفية التاريخية ، ذلك أنه فى تناولنا للفكر الإسلامى وتربية المرأة فى القرن التاسع عشر ، نحتاج بصفة ضرورية للتعرف على المظروف التاريخى الذى احتوى هذه القضية فيما احتوى ، وذلك لنتبين موقعها من غيرها من القضايا ولنتعرف على طبيعة العلاقة التى تربطها بها والقوى الثقافية المؤثرة فيها ، تلك العلاقة التى اتسمت بالدينامية الحية الفاعلة ، كما نتعرف على النتائج التى إنتهت إليها وتمخضت عنها ، وهى نتائج نستهدفها الدراسة وتعمل على إبرازها .

ونحتاج أيضًا بصفة ضرورية إلى التعرف على الفكر الإسلامى من حيث ماهيته ومفهومه وتميزه عن غيره من الدلالات التى تداخلت معه والتى أحدثت اللبس والغموض ، مما كان له أثره بعيد المدى فى العديد من الدوائر الحياتية .

أولاً : الفكر الإسلامى :

أما عن قضية الفكر الإسلامى فيمكن القول بأن ثمة خلطا بينا بين دلالات المصطلحات التالية ، الفكر الإسلامى ، والتراث الإسلامى ، وبين الإسلام فى مضمونه وجوهره .

ونحاول هنا أن نحدد الدلالات ونميز المصطلحات والمفاهيم حتى تتسنى لنا المعالجة الصائبة والتناول الصادق بعيدًا عن زيف الألفاظ وتضمينات الدلالات .

فالإسلام كما نعلم يعنى العقيدة والشريعة فى توحدهما معا توحدا متكاملا يسمح بمعرفة كل الجانبين فى غير قطيعة أو ثنائية ، والقرآن الكريم والسنة النبوية هما النص الإسلامى الذى حدد كلا من العقيدة والشريعة فى الجانب الإيمانى والجانب التشريعى

بأنظمته المختلفة سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، وقد قال الرسول – ﷺ – فى الحديث الشريف المتواتر : « تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبدا ، كتاب الله وسنتى .

إذًا فالإسلام هو النص القرآنى والبيان النبوى الذى بين العقيدة وفصل الشريعة ، وحدد الغاية من الخلق والوجود قال تعالى : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شىء﴾ (النحل : ٨٩) ، وقال تعالى : ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون﴾ (النحل : ٤٤) ، وقال تعالى : ﴿وما خلقت الجن والإنس إلاّ ليعبدون﴾ (الذاريات : ٥٦) .

معنى هذا أن الإسلام يتجاوز الظرفية الزمكانية ويعلو عليها مستقلا عنها ولكنه ضابط لها وموجه لمسارها فهو منها بمثابة الطاقة الدافعة للفعل الواعية بغايته وبالتالى فإن الإسلام فاعل فى الحدث وليس صادرًا عنه على نقيض ما تدين به الفلسفات الأخرى من إرجاع للحدث إلى طبيعة كامنة فيه مستترة فى ماهيته . أن الإسلام حين دعا إلى التأمل والعمل على اكتشاف نواميس الكون وأسباب الفعل فإنه يدعو بهدف الإيمان برب هذه النواميس والأسباب لا الإيمان بالنواميس نفسها والإعتقاد بأسبابها فقط .

فالإسلام يعالج الأحداث والواقع فى غير قطيعة مثالية ويسمو عليها فى غير امتزاج ماركس أو برجماتى أو طبيعى ، الإسلام واقع مثالى ومثال واقعى تتوحد فيه كل العوالم الطبيعية والحيوية لأنها صادرة عن إله واحد جعل أساس آخر رسالاته للإنسان عقيدة التوحيد .

هذا عن الإسلام إذًا فماذا عن التراث ؟

– بدأت قضية التراث تفرض نفسها بحدة على ساحة الفكر المعاصر أو هكذا أراد لها البعض أن تكون قضية محورية يدور حولها الجدل ويحتدم فيها الخلاف وتتباين فى معالجتها المناهج والسبل ويشتط البعض فيزيد من حجمها ليتجاوز بها نطاق الواقع المنظور إلى حيث عالم الغيب وتصير قضية التراث قضية عقدية شرعية وتتنوع المذاهب والأيديولوجيات وتصطرع فيما بينها وتبدو الحاجة لمعجميات جديدة تضفى طابع الشرعية والهوية على هذه المذاهب وتتردد كلمات سلفية ، تقدمية ، وسطية ويصطبغ كل مذهب بنظامه القيمى الحكمى وتكثر الإتهامات والأحكام وتصير الساحة الفكرية حافلة بكل

ضروب التناقض والصراع مما يزيد من حدة الأزمة الحضارية التى يعيشها العالم العربى والإسلامى اليوم ويبدو أننا جبلنا على الإختلاف فيما لا إختلاف فيه والإتفاق على ما لا إتفاق عليه .

فمن قائل بأن التراث ركام ميت قبر منذر زمن والبحث فيه هو مجرد نبش فى قبور المرتى وأن علينا أن ننظر للأمام وأن نطرح عن تراثنا هالة القداسة والتعظيم خاصة إذا ما كان ماضينا حافلا بضروب الغدر والأثرة والنزوة وإنه لا شيء فيه جميل ، فيجب أن ننظر خلفنا فى غضب .

ويعبر البعض عن ذلك بقوله وهو بصدد الحديث عن الزمن « الأساس فى النظرة إلى الزمن يرجع إلى تصورنا أن البقاء رهن بالإستمرار ، ومن ثم فإن تحقيق الذات يتطلب العثور على جذور لها فى الماضى ، وإحياء هذه الجذور معناه القبول بالسكون والخمود » ويستطرد قائلاً إننا فى الزمن مولعون بصور الماضى .. نسعى إلى إحيائها سعيا حثيثا بحجة الإمتداد فى الزمن وهذا النهج لا مثيل له بين أمم الأرض » ، ويذكر أنه ظل عاما كاملا يبحث عن النبع الصافى من الخيال فلم يعثر عليه ، فلم يجد النظام السياسى العادل ولا النظام الاجتماعى الجميل الباهر ، ولا الأوضاع الاقتصادية الكاملة المحكمة ، ونتيجة ذلك رفض الماضى والنظر إلى المستقبل[1] .

ومن قائل بأن التراث لأنه نتاج إسلامى أثمرته البيئة الإسلامية إذًا فهو تراث جدير بالإكبار والتعظيم والمساس به والتناول منه يعنى انتقاصا من شأن الدين نفسه فإذا ما كنا نريد ملاحقة الواقع ومعايشته فعلينا أن نعود للتراث لنجد فيه النموج للحياة حيث إن ما صلح به أولنا يصلح به آخرنا وعلينا أن نحذر من تلك الرياح العاتية الصادرة ، عن هذا الواقع الغربى المتغير حيث لا تحمل هذه الرياح إلا لقاح الفساد والإفساد لعقيدتنا وقيمنا وفكرنا .

ومن فريق يحاول أن يجد لنفسه مكانا فى هذه الساحة المصطرعة وكأنه ارتضى لنفسه أن يقوم بدور المصالحة وفض الصراع بين الفريقين السابقين فنادى بمحاولة توفيقية فينظر بإحدى عينيه للواقع المتغير وبالأخرى للتراث الثابت[2] .

---

(١) محمد عنانى ، الأهرام ، أسبوعيات ، ١٩٩٠/١١/٣٠ م .

(٢) أكرم ضياء العمرى ، التراث والمعاصرة ، كتاب الأمة العدد (١٠) وانظر ، حسن حنفى ، التراث والتجديد (ماذا يعنى التراث والتجديد ؟)

وما يخشى أن يصيب هذا الفريق الدوار فيقع مغشيا عليه ، لقد ظهرت كتابات عديدة تعالج هذه الإشكالية (الأصالة والمعاصرة) واتخذت شكل كتب وبحوث كما عقدت مؤتمرات وندوات تستهدف التوصل لحل لها . وكان الغالب على كل أولئك هو الأثر الذى تحدثه نار الهشيم وأرى أن كل هذا الخلط والتناقض إنما يعزى أساسًا إلى عدم تحديد مصطلح (التراث) ورحم الله تعالى علماءنا القدامى حين كانوا يبدأون أول ما يبدأون بتحديد المعنى اللغوى والإصطلاحى لموضوع الدراسة منعًا للبس وتجنبًا للخطط والتناقض وهذا ما تفطنت له الفلسفة التحليلية المعاصرة .

وأرى أن التراث يعنى منظومة المعتقدات والقيم والمعارف وضروب السلوك ونواتجه التى تسفر عنه وتخلفه أى أنه المعادل الموضوعى لفعل الفكر الإسلامى والجانب التطبيقى له فى فترة زمنية معينة .

وإذا كان التراث بهذا المعنى يعنى الإسترداد التاريخى فهل يعنى هذا أنه نكوص للخلف أو رفض للواقع وتثبيت لعقارب الزمن وتشويه ساذج لمنطق التغير وقانون الحياة ؟ لو كان التراث بهذا المعنى لحق لنا أن نهمله ونكتفى بالترحم عليه ولا نستبقى له من قيمة سوى قيمة التقادم الزمنى لكن الفهم الواعى للتراث يفضى بالضرورة إلى إعتبار التراث قيمة حية وقوة فاعلة فى واقعنا وإستشراقا لمستقبلنا ، فالزمن نهر متدفق تتدافع أمواجه وتصطرع دون خروج عن مساره ومجراه . إذًا من الخطأ أن ننظر للتراث تلك النظرة المبتسرة وعلى هذا فكيف نتعامل مع التراث ؟

إن الإجابة على هذا السؤال تقتضى أن نرجع مفهوم التراث إلى عناصره الأساسية مسترشدين فى ذلك بتحليل أى نمط من أنماط السلوك الإنسانى ، حيث يقوم على ثلاثة عناصر ، هدف يسعى إليه الإنسان ويعرفه – رغبة وإرادة لتحقيق الهدف – ثم نزوع وسلوك ، أى أن السلوك الإنسانى يعنى إدراك ووجدان ونزوع .

وفى ضوء ذلك يمكن تحديد عناصر التراث بالآتى :

– ما يتصل بالعقيدة والقيم بإعتبارها هدف الفعل الإنسانى .

– ما يتصل بالمعارف والعلوم بإعتبارها السبيل لفهم الهدف وإدراكه .

– ما يتصل بالنشاط والسلوك بإعتباره تطبيقًا للمعارف وتحقيقًا للعقيدة .

معنى هذا أن التراث يعمل فى دائرتين متكاملتين دائرة الثبات وتمثلها العقيدة والقيم ودائرة التغير وتمثلها الأفكار والأشياء .

إذاً فنحن نتعامل مع التراث فيجب أن نضع فى الحسبان بعد الثبات وبعد التغير فنأخذ بالعقيدة والقيم الثابتةلأنها لا تتغير وإن كانت تتغير الممارسات والتطبيقات . ومن الخطأ البين أن نتجاهل ثوابت تراثنا أو أن نجهلها لأن هذا يعنى على المدى القريب أو البعيد افتقاد الذاتية وضياع الماهية والجنوح نحو التبعية والمحاكاة الحمقاء . وتكاد نجمع كل الدراسات الاجتماعية والتاريخية على الثوابت والعموميات فى تماسك المجتمعات وبقائها وإستمرارها . بل إن مجتمعا كإسرائيل مثلاً لا يملك الثوابت التى تحتضنها تربة التراث يحاول أن ينتحل له ثوابت يستند إليها فى تبرير وجوده وتوسعاته العدوانية والصراع الحضارى اليوم إنماهو صراع يستهدف الثوابت والعموميات للإخلال بها والعمل على تقويضها وهذا ما كانت تستهدفه توجهات الغزو الاستعمارى .

وإذا كانت الثوابت باقية ويجب الحفاظ عليها بإعتبارها ضرورة اجتماعية بل هى روح المجتمع وجوهره إذا يبقى أن نراجع دائرة التغير والتى تتضمن المعارف والأشياء . ويكون إطارنا المرجعى هو النص القرآنى والبيان النبوى الذى حدد دائرة الثوابت فما توافق معه قبلناه وأفدنا منه وما إختلف معه ورفضناه وعدلنا عنه . وكذا الأمر بالنسبة للأشياء ما صلح منها فى واقعنا أفدنا منه وما تخلف عن تلبية مطالبنا وحاجاتنا تركناه .

على أنه يجب أن ننوه إلى أن التغير فى عالم الفكر يتسم بالبطء النسبى مقارنا بالتغير فى عالم الشىء .

مثل هذا الصنيع وهذه المراجعة تجعلنا نطمئن لتراثنا ونثق فى أنفسنا وهى الخطوة الأولى فى طريق النهوض والتجديد . كما يجعلنا لا نحكم دائرة الغلق على أنفسنا ونصير أسرى تصوراتنا ورهائن كهوفنا الفكرية والشعورية .

وهكذا نخرج من دائرة الصراع المستغلقة التى حبسنا فيها أنفسنا وبددنا فيها طاقتنا الفكرية فى غير ذى جدوى خاصة ونحن على مشارف المرحلة الحضارية التالية مرحلة المعلومات وصناعة الواقع وتخطيط المستقبل . ما أحوجنا أن نكف عن هذا الهذيان وأن نقلع عن سفسطة (الدجاجة والبيضة) وأيهما أسبق فى الوجود .

هذا عن التراث يبقى أخيرًا تحديد مفهوم الفكر الإسلامى وهو هدف هذا الإسترسال الوجيز .

ذكرنا سلفا أن الإسلام يعنى النص القرآنى والبيان النبوى وبالتالى لا يجوز أن نخلط بين الإسلام وبين الفكر الإسلامى ، فالفكر الإسلامى هو واحد من المصطلحات الحديثة وهو يعنى ناتج الفكر فى تعامله مع النص القرآنى والبيان النبوى أى مع جوهر الإسلام وأسسه ومبادئه وتشريعاته ومقاصده وبذا يتميز الفكر الإسلامى عن غير الإسلامى ، حيث إن دائرة الفعل العقلى هو الإسلام بخلاف أنواع الفكر الأخرى التى تتعامل مع عقائد ومذاهب غير إسلامية .

وقد حدث قدر من الخلط فى الفكر الإسلامى وذلك عندما تفاعلت دائرة الفكر الإسلامى مع غيره من دوائر الفكر غير الإسلامية بداية من عصر ترجمة التراث اليونانى إلى اللغة العربية ، وما ترتب على ذلك من إحتكاك وتفاعل ترك آثارا يجب أن تستبعد من دائرة الفكر الإسلامى لأنها لا تصدر عن عقيدة الإسلام وشريعة بل عن عقيدة وثنية وشريعة بشرية ظنية وهنا ننوه إلى ضرورة الحيطة والحذر فى التعامل مع قضايا الواقع وعدم التسرع فى خلع صفة الفكر الإسلامى على كل جديد مستحدث متجاهلين أو جاهلين بالمظروف الأيديولوجى والاجتماعى لهذا الجديد ، وإذا كان الفكر الإسلامى بهذا التحديد وذلك المفهوم فما مدى التعويل عليه والأخذ به ؟ ومدى حجيته ؟

لقد أكد الله تعالى فى غير موضع حوالى ٨٨ آية على أهمية العلم ومكانته مما لا يجهله مبتدىء . والعلم يغاير المعرفة وإن كان نتيجة لها فالمعرفة تعنى معرفة الأشياء والأفكار لكن العلم هو الإنتقال من هذه المرحلة إلى معرفة الأسباب والقوانين الكامنة خلف الأشياء والأفكار للتوصل إلى اليقين المطلق يقين الإيمان والتوحيد .

ولأن المعرفة وهى المرحلة الأساسية فى البناء العلمى تختلف من شخص لآخر ومن مجال لآخر ، كما تتوقف فى تدرجها وإرتقائها على مدى تقدم آليات العلم وأدواته لذا نتوقع أن يكون هناك تفاوت فى الفهم والإستنتاج ، كما نتوقع قدرًا من الخطأ غير المقصود ، لذا فإن التفرقة بين الفكر الإسلامى والإسلام هى تفرقة ضرورية ، فالإسلام يتسم بالقطعية ، والفكر يتسم بالظنية ولكن بون شاسع بين ظنية الفكر الإسلامى وظنية غيره من أنواع الفكر ، ويعزى هذا لقطعية المرجع فى الفكر الإسلامى وظنية المرجع فى

الفكر غير الإسلامى . لذا فإن المسلم إن اجتهد فأصاب فله أجران ، وإنْ أخطأ فله أجر ، لماذا هذا ؟

الأجر لقطعية المرجع الذى يستند إليه فكر المسلم فهو لا يحرم حلالاً ولا يحل حرامًا ولا يخل بأساس من أسس الإسلام ، بخلاف الفكر الآخر الذى يرتكز على للمنفعة المادية أو يجرد نفسه من الإرادة والحرية ليسلم نفسه للحتمية الجدلية أو البيولوجية .

إن الفكر الإسلامى فيه مساحة لعمل الفكر يشحذ فيه المسلم عقله ويعمل فكره ويؤكد حريته وذاته وكونه جديرًا بحمل الأمانة والإستخلاف فى الأرض . وقد أكد القرآن الكريم على حافزية الفكر بقوله تعالى : ﴿قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربى لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربى ولو جئنا بمثله مددا﴾ (الكهف : ١٠٩) ، ويقول تعالى : ﴿ولو أن ما فى الأرض من شجرة أقلام ، والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾ (لقمان : ٢٧) .

ولقد سأل النبى – ﷺ – معاذ ابن جبل حين أوقده داليا على اليمن بم تحكم يا معاذ ؟ قال : بكتاب الله . قال الرسول فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ قال : بسنة رسول الله قال : فإن لم تجد فى سنة رسول الله ؟ قال : أجتهد ولا آلو ففرح رسول الله لذلك ، وقال : الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يحبه ويرضى (رواه أبو داود) . إذًا فالفكر الإسلامى بالمعنى السابق وفى حالة تمركزه عند النص القرآنى والبيان النبوى يصلح أن يكون مرجعًا من مراجع التشريع .

إن الإجتهاد وهو فحوى الفكر الإسلامى فى غايته ومحدداته – هو مدخل التجديد والإستمرار لشريعة الله تعالى وبقائها خالدة على الزمن .

ومن الحقائق التاريخية الواضحة أن العالم الإسلامى ما دخل مرحلة التخلف والإنحطاط والتبعية البغيضة إلا بعد أن تجاهل هذا المصدر الإسلامى وهو الإجتهاد حيث أخذ يلوك ماضيه ويجتر ما تبقى لديه من مآثر وهو ظان أنه يحيا بينما هو فى الحقيقة يعانى الضمور وموت الخلايا فى جسمه حتى أصابه الوهن وحمل لقب الرجل المريض وعاش مرحلة القصعة التى أشار إليها الرسول الكريم بقوله : « يوشك أن تداعى إليكم الامم كما تداعى الاكلة إلى قصعتها .قالوا أو من قلة ؟ قال : لا ، ولكنكم غثاء كغثاء السيل .

لقد هرب العالم الإسلامى من تبعية الأمانة وخانها وباع حريته وأهملها وعاش عالة على موروث قديم وهو فرح بما عنده ، بل وتغنى به وألف فيه المتون والحواشى وحواشى الحواشى والتخليصات والمنظومات واستنفذ فيه كل قواه محاكيا مقلدا معرضا عن العمل والسعى راكنا للكسل والخمول وحق عليه قول الله تعالى إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، هذا عن الفكر الإسلامى وعن أهميته .

وفى هذه الدراسة سنحاول أن نرصد مسار الفكر الإسلامى صعودًا وهبوطًا فى معالجة قضية نصف الكيان الإنسانى الذى لا يتحقق مدلوله إلا به ألا وهى قضية تربية المرأة فى فترة تاريخية معينة حفلت بضروب التغير وصفوف التحدى السافر منها والخفى وهى فترة القرن التاسع عشر .

ثانيًا : الظرفية التاريخية :

سنحاول هنا فى معالجة هذه القضية أن نحدد معنى التاريخ ، وأن نعرض على سبيل الإجمال لبعض نظريات التفسير التاريخى لنستخلص فى النهاية أهمية الظرفية التاريخية فى دراسة هذا الموضوع .

– فى تعريف التاريخ يذكر « هرنشو » أن لفظ تاريخ يطلق ويراد به ثلاثة معايير فقد يطلق ويراد به مجرى الحوادث الفعلى وقد يطلق ويراد به التدوين القصصى لمجرى شئون العالم كله أو بعضه ، وقد يطلق ويراد به البحث أو التعليم بواسطة البحث[١] .

وعمومًا فإن التاريخ يشغل الماضى والحاضر٤ والمستقبل ، ونحن عندما ندرس الماضى فنحن ندرس فى الوقت نفسه الحاضر والمستقبل ذلك أن لا شىء فى الوجود يتلاشى ، كما لا يوجد فاصل بين الماضى والحاضر والمستقبل .

وقد كانت دراسة الظرفية التاريخية تقوم فى الماضى على رصد الوقائع وتسجيل الأحداث تسجيلاً تفصيليًا وكان المظروف الزمنى أحيانًا هو الأساس الذى يعتمد عليه فى تصنيف هذه الأحداث وتبويبها فكان يؤرخ بالعام ، وأحيانا أخرى كان يؤرخ للأحداث بصانعيها من الخلفاء والملوك والأمراء ، وأحيانا ثالثة كان يؤرخ للأحداث

---

(١) هرنشو ، علم التاريخ (ترجمة عبد الحميد العبادى) ، القاهرة ، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، ١٩٤٤ ، ص ٧-٦ .

بالظرف المكانى فيؤرخ للأحداث ببغدادأو دمشق أو القاهرة أو غير ذلك . أى أنه كانت هناك تصنيفات عديدة متنوعة المحاور والأسس لكنها لم تخرج فى مجملها عن التسجيل والوصف والحشد الوقائعى مع السماح لأن تعمل الإنطباعات الذاتية عملها فتضيف ما تضيف أو تحذف ما تحذف حسب درجة التصور ومدى الإلتزام بموضوعية الوصف والرواية ، لذا لم يكن غريبًا أن تحفل بطون الكتب الخارجية بالعديد من الأحداث والروايات والإسرائيليات التى يجد المرء نفسه عاجزا عن فهمها أو الإقتناع بها ، هذا فضلا عن اصطباغ الرواية التاريخية فى أحيان كثيرة بصبغة سياسية مغرضة بما جعل الحقيقة تضيع فى أحيان كثيرة ، ولهذا كان ينظر للتاريخ فى الماضى على أنه ضرب من القصص والخيال الذى يساق للتسلية والترويح ، وإثارة الخيال على غرار ما عرف فى الأساطير والملاحم .

وبهذا المعنى كان التاريخ فنا أقرب منه علما ، ومع تقدم المناهج العلمية ومحاولة تطبيقها فى مجال العلوم الإنسانية حظى التاريخ بالعناية والدراسة وخضع كما خضع غيره من العلوم الإنسانية لمنهجية العلم وأدواته ووظائفه ، وكان علم البيولوجيا أكثر العلوم التطبيقية شبها وتأثيرا فى علم التاريخ وبهذا المعنى صار علما له فلسفته ومبادئه العلمية التى يقوم عليها كل علم وهى الكلية ، والعلية ، والتنبؤ .

وهكذا صارت فلسفة التاريخ (الابتية) الأساسية لعلم التاريخ حيث صارت تعنى بدراسة النظريات الكلية التى يمكن أن توفر لدراسة الظرفية التاريخية وظائف الوصف ، والتفسير ، والتنبؤ وصف الواقعة التاريخية ، وتفسيرها وفهمها وإدراك العلاقات التى تربط بين عناصرها ، والتنبؤ بما يمكن أن تكون عليه الظاهرة مستقبلا ، أو إمكانية تكرار الظاهرة إذا ما توفرت أسبابها دواعيها وإن كان التكرار فى الجوهر والمضمون والرسالة التاريخية لا فى الأسلوب والشكل والوعاء الحدثى . وقديمًا قال هيراقليطس (لا يستحم المرء فى النهر مرتين) .

على أن هناك من رفض القول بأن التاريخ علم له نظامه الثابت وقوانينه الكلية بدعوى أن الحادثة التاريخية حادثة متفردة لا تقبل التكرار .

يقول (كارل بوبر) فى هذا الصدد إن التكرار الحقيقى ممتنع فى التاريخ الاجتماعى ، ومعنى هذا أننا يجب أن نتوقع ظهور الحوادث الجديدة فى جوهرها ، نعم إن التاريخ أخذ يعيد نفسه ، ولكنه لا يعيد نفسه أبدا فى نفس المستوى ، وأن العالم يعنى بوصفه

علم الطبيعة لا يحدث فيه جديد ، فالجدة فى علم الطبيعة ليست إلا جدة فى الترتيب والتأليف ، أما الجدة التاريخية فهى جدة حقيقية ، وبالتالى فإمكانية التوصل لقوانين كلية تتيح إمكانية التنبؤ أمر غير مقبول فى مجال التاريخ[١]

ويوجز « بوبر » رأيه فى عقم المذاهب التاريخى ورفضه فى خمس قضايا ؛ فالتاريخ الإنسانى يتأثر بنمو المعرفة الإنسانية ، كما أنه لا يمكن بالطرق العقلية أو العلمية التنبؤ بكيفية نمو معارفنا ، وبالتالى عدم إمكانية التنبؤ بمستقبل سير التاريخ الإنسانى ، وهذا معناه رفض إمكان قيام تاريخ نظرى ، ولذا أخطأ المذهب التاريخى فى تصوره للغاية الأساسية التى يتوصل إليها بمفاهيم علمية[٢] .

بعد هذا نحاول أن نعرض فى إيجاز لبعض النظريات المذهبية المفسرة للتاريخ ومن هذه النظريات :

– نظرية التعاقب الدورى الحضارى الذى كان ابن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) أول من نادى بها . وقد بسط ابن خلدون نظرية هذه فى مقدمته التاريخية الشهيرة التى عرفت واشتهرت أكثر من كتابة التاريخى نفسه المسمى « كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر » .

ومع أن ابن خلدون عرف رائدًا لعلم الاجتماع فهو فى الحقيقة كان رائدًا لفلسفة التاريخ .

وموجز هذه النظرية أن الدولة تشبه الكائن الحى فى مروره بأطوار ثلاثة الطفولة ، الشبيبة ، الشيخوخة ، وهكذا فإن الدولة تمر بأطوار ثلاثة : طور البداوة ، وطور التحضر ، وطور التدهور ويقيس ابن خلدون عمر الدولة على عمر الكائن الحى وقد حدد عمر الدولة وبمائة وعشرين سنة وهى تتكون من ثلاثة أجيال ، والجيل هو عمر شخص واحد متوسط العمر وهو يبلغ أربعين عاما الذى هو فترة إنتهاء النمو والنشوء .

---

(١) كارل بوبر (عقم المذهب التاريخى) ترجمة عبد الحميد صبرة ، الإسكندرية ، منشأةالمعارف ، ١٩٥٩ م ، ص ٢٤–٢٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٦–٥ .

ومما أعطى لهذه النظرية مصداقيتها أن ابن خلدون حاول أن يقيمها على مبادىء العلم الكلية والعلية ، وعلى منهجه في الدينامية والجدلية ، ويمكن إجمال المبادىء العامة التى قامت عليها هذه النظرية فى الآتى :

أن التطور التاريخى يخضع للتفاعل والصراع ، وأن العصبية الدينية والقبلية لها دور أساسى فى بناء الدول ، وأن الحضارة كالكائن الحى فى تطوره من البداوة إلى الحضارة إلى التدهور ، وأن العوامل البيئية والجغرافية مؤثرة فى التاريخ ، وأن للاقتصاد دورًا فى العمران البشرى ، وأن الدول تسقط بسقوط العصبية والولاء الدينى ، وأن العرب والإنسانية كلها لا تصلح بغير الدين .

لقد اختار ابن خلدون الرؤية الشاملة للتاريخ انه يتناول مختلف الأسباب الفاعلة فى بنية وصيرورة الواقعة التاريخية[1] .

وعلاقة هذه النظرية بموضوع الدراسة علاقة وطيدة حيث تعالج الدراسة قضية تربية المرأة فى ضوء العوامل الثقافية المختلفة التى أشار إليها خلدون وعلى رأسها العامل الدينى خاصة إذا ما كانت هذه العوامل التى إنتهى إليها ابن خلدون صادرة أصلاً من التفسير الإسلامى فى علاقته بواقع العالم الإسلامى .

لقد سبق ابن خلدون العلماء المحدثين الذى أكدوا على أهمية منهج القوى المؤثرة أو العوامل الثقافية وعلى رأسهم (باطس) فى كتابه تاريخ التربية الغربية .

بعد أن عرضنا لنظرية تعاقب الدورات الحضارية ننتقل إلى نظرية أخرى هى نظرية المادية التاريخية وقد إرتبطت هذه النظرية باسم كارل ماركس (ت ١٨٨٣ م) وسنعرض فى إيجاز للملامح العامة لهذه النظرية .

لم يصطنع ماركس هذه النظرية من عنده وإنما أفاد كثيرًا من جدلية هيجل الصورية وإذا كان هيجل قد أكد على هذه الجدلية فى المجال التجريدى العقلى فإن ماركس قد أكد على هذه الجدلية فى المجال المادى الطبيعى وهذا هو الجديد الذى أضافه ماركس ، لقد قال ماركس أن الطبيعة هى المصدر الحقيقى للتاريخ وأن القوى الحقيقية التى تحكم المسار التاريخى وتحدد السلوك الإنسانى هى القوى الاقتصادية التى تحدد بصفة واضحة

---

(١) عماد الدين خليل ، ابن خلدون إسلاميا ، ط ٢ ، بيروت ، ١٩٨٥ ، ص ١١ .

كل النظم الأخلاقية والاجتماعية وكل التغيرات التى تصيب النظم الاجتماعية ما هى نتائج للمتغيرات التى تصيب العلاقات الاقتصادية .

ويذكر ماركس أن التاريخ الذى يعنيه هو تاريخ الفكر والصناعة الإنسانية المرتبط بالمادة إرتباطا جدليا ، ويقيم ماركس هذه الجدلية على ثلاثة قوانين ، قانون التغير من الكم إلى الكيف والتغير هنا تغير مفاجيء يتم عن طريق طفرة ، فالتغير التاريخى فى الكم لا يصاحبه تغير تدريجى فى الكيف ، والتغير المفاجيء كما ينطبق على المادة ينطبق أيضًا على الإنسان . فظهور الإنسان نفسه حدث طفرة ، والتغير الذى يصيب المجتمع هو تغير مفاجيء يسمى بالثورة .

والقانون الثانى الذى تقوم عليه الجدلية هو قانون تداخل وصراع الأضداد ، وصراع الأضداد هو القوة المحركة للتاريخ الطبيعى والإنسانى معا والصراع بين النقيضين هو المضمون الداخلى للحركة والتطور .

والقانون الأخير هو قانون نفى النفى حيث يذكر ماركس أن مراحل الحياة فى عالم الطبيعة والإنسان تتضمن سلسلة من نفى النفى فكل تنفى سابقتها وليس النفى فناء وإنما هو هدم وبناء .

وفساد هذه النظرية وسبب إنهيارها من خلال تنظيماتها السياسية على نحو ما شاهدنا فى الاتحاد السوفيتى سابقا يرجع إلى إنكارها للدين حيث يرى ماركس أن الدين من صنع الإنسان وأنه نتاج العوامل الاقتصادية والعلاقات الاجتماعية والأنظمة السياسية[1] .

ونحن نرفض الأخذ بهذه النظرية فى التفسير التاريخى مهما عولت على العامل الاقتصادى ورغم أهميته ، ذلك أن التفسير التاريخى الصادر عن المرجعية الإسلامية هو التفسير الموضوعى الصادق وهو الرؤية الشمولية السديدة التى لا تهمل أيا من العوامل المشكلة للظرفية التاريخية بإعتبار أنها نسيج متداخل تختلف خيوطه وتأتلف وبالتالى فإن إبراز عامل دون العوامل الأخرى من شأنه أن يفسد التفسير ويشكك فى نتائجه .

---

(١) رأفت غنيمى الشيخ ، فلسفة التاريخ ، القاهرة ،دار الثقافة والنشر والتوزيع ، ١٩٩١ م ، ص١٦٩ .

– النظرية الأخيرة التى نود أن أن نشير إليها هى نظرية التحدى والإستجابة تلك التى قال بها الفيلسوف البريطانى توينبى (ت ١٩٧٥ م) .

لقد تأثر توينبى بنظرية ابن خلدون تأثرًا كبيرًا حتى قال عنه « لقد وضع ابن خلدون فلسفة للتاريخ هى بدون مجاملة أعظم عمل من نوعه ابتدعه العقل فى أى زمان أو مكان[١] .

يرى توينبى أن الحضارة هى الوحدة الحقيقية للدراسة التاريخية ويأخذ بنفس التقسيم للمراحل الحضارية الذى قال به ابن خلدون فيذكر أن الحضارة تمر بثلاث مراحل ، مرحلة تكوين الحضارة ، مرحلة نمو الحضارة ، ثم مرحلة تدهور الحضارة وإنهيارها ، ويوضح مرحلة مولد الحضارة بالتحدى والإستجابة بأن الصعوبات هى التى تحفز الإنسان إلى العمل وبالتالى يصنع تاريخه والحضارة تتكون فى البيئة الصعبة غير المتميزة ، أما اليسر فهو عدو الحضارة . أما مرحلة نمو الحضارة ، فالحضارة تنمو نتيجة تحديات جديدة وإستجابات جديدة ، والنجاح المتولد الأثر بين كل تحد وإستجابة هو ما يعنى النمو والتقدم الحضارى ، أما المرحلة الأخيرة وهى مرحلة الإنهيار فيفسر أيضا بالتحدى والإستجابة حيث يكون التحدى أقوى من الإستجابة فتقصر الطاقة الإبداعية ، وتنصرف الأغلبية عن محاكاة الأقلية ، وتفتقد الوحدة الاجتماعية بصفة عامة . هذه أهم ملامح نظرية التحدى والإستجابة .

وأهمية هذه النظرية ترجع إلى أنها تشبه إلى حد كبير نظرية ابن خلدون وخصوصا تأكيدها على أثر العامل الدينى فى التفاعل مع التحدى والتفاعل معه والإستجابة له حتى عزا بناء كل الحضارات إلى أثر العامل الدينى . كما أن هذه النظرية لا تستند إلى تصورات ميتافيزيقية وإنما تقوم على ملاحظة الواقع ودراسته ، شأنها فى ذلك شأن نظرية ابن خلدون .

ويمكن أن تفسر هذه النظرية بعض جوانب موضوع الدراسة الحالية حيث إن تعليم المرأة فى القرن التاسع عشر كان يمثل تحديًا ضاغطًا ضعفت أمامه الإستجابة وعجزت

---

(١) نيفين جمعة ، فلسفة التاريخ عند أرنولد توينبى ، القاهرة ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩١ م ، ص ٢١ .

عن التغلب عليه بفعل عوامل عديدة ينتظمها كلها حال الفكر الإسلامى وما اتسم به من قوة أو ضعف وبالتالى قدرة على مواجهة التحدى أو تكوص أمامه .

نخلص من هذا العرض الموجز لبعض نظريات التفسير التاريخى إلى أن الفكر الإسلامى فى تعامله مع الظرفية التاريخية لقضية تربية المرأة فى القرن التاسع عشر ، إنما كان يستند هذا الفكر أساسا إلى النص القرآنى والبيان النبوى ، وأن تفسير النص وفهمه إنما كان يتأثر بالواقع التاريخى والاجتماعى الموروث للقرن التاسع عشر كما كان يتأثر أيضًا بتحديات الفكر الغربى الضاغطة وما أحدثته من تغيير فى النسق الثقافى التقليدى العام مما تتطلب من صيغة جديدة تحتوى نواتج هذا الصراع الحضارى والتفاعل ما بين ثقافة الشرق وثقافة الغرب وبالشكل الذى لا يهدد ثوابت المجتمع وقيمه .

وهذا ما سوف نعرفه من خلال فعاليات هذه الدراسة .